

العنوان:	جوانب من آثار الحروب في تدمير وسرقة المعالم الحضارية للعراق القديم
المصدر:	مجلة كلية الآداب جامعة بغداد - العراق
المؤلف الرئيسي:	الجميلى، قصى صبحى عباس
المجلد/العدد:	ع93
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2010
الصفحات:	278 - 301
رقم MD:	667637
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	EduSearch, AraBase
مواضيع:	التاريخ القديم، العراق، سرقة الآثار، الحروب
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/667637

جوانب من أثار الحروب في تدمير وسرقة المعالم الحضارية للعراق القديم

الدكتور قصي صبحي عباس الجميلي

كلية الآداب / جامعة بغداد

قسم الآثار

المقدمة:

شهد العالم القديم حضارات نمت وتطورت في ظل الظروف التي تهيأت لها من إمكانيات وجودها وتضافر جهود أصحابها واكتسبت الكثير منها عناصر مميزة وملامح أصبحت اليوم مرآة تعكس صورتها المشرقة وبهذا الخصوص فقد سجلت حضارة بلاد وادي الرافدين إنجازاتها في مختلف مجالات الحياة وكان لها السبق عن الحضارات الأخرى في الشرق الأدنى القديم كما في اختراع الكتابة والفنون والعمارة وما إلى ذلك.

واليوم نستطيع أن نجد الكثير من الآثار السلبية التي خلفها الاحتلال الأمريكي في عدد من المواقع الأثرية التي أخذها كقواعد عسكرية وأخرى تعرضت للسرقة أو التدمير نتيجة العمليات العسكرية. ومن هنا جاء عنوان بحثي "جوانب من أثار الحروب في تدمير وسرقة المعالم الحضارية للعراق القديم".

لقد تناولت في البحث ثلاثة محاور الأول بعنوان "الحرب والحضارة مصطلحان لا يلتقيان" حيث وضحت فيه الفروق لمصطلحات الحرب والحضارة وكيف ينتهيان في طريق مسدود.

وفي المحور الثاني الذي جاء تحت عنوان "قراءة في آثار الحروب القديمة مستوحاة من تاريخ العراق القديم" تناولت فيه حياة الإنسان الأولى في تاريخ العراق القديم وكيف خطأ عبر عصور موعلة في القدم خطواته الوئيدة التي سجل لنا فيها أسلوب ونمط حياته حتى وصل إلى ركب الحضارة في المدينة والتمدن والتي معها ظهرت النواة الأولى للحروب والنزاعات التي ظهرت منذ عصر فجر السلالات واستمرت حتى نهاية العصور التاريخية القديمة ضمن التسلسل الزمني لوادي الرافدين القديمة وقد شرحت فيها الأسباب لهذه الحروب والنزاعات وأنواعها كأن تكون داخلية أو خارجية وكيف اختلفت هذه الحروب في أنواع الأسلحة والدروع أو في أماكنها وأزمانها وأساليبها مع نماذج من الأعمال الفنية التي صورت لنا هذه الحروب ونتائجها وأثارها السلبية على الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

أما المحور الثالث فقد جاء تحت عنوان "شواهد صورية لآثار الحرب الأمريكية في تدمير وسرقة المعالم الأثرية في قطرنا العزيز" استعرضت فيه عدد من الصور التي توضح لنا جوانب من أثار الحرب الأمريكية في تدمير وسرقة عدد من المعالم الحضارية.

واختتمت بحثي بعدد من التوصيات التي تساعدنا في الحفاظ على ارثنا الحضاري الذي نعده قاعدة نطلق منها في إعادة بناء كل ما هو جميل لهذا البلد المعطاء.

١- الحرب والحضارة مصطلحان لا يلتقيان:

يشير مصطلح الحرب إلى الصراع والنزاع الذي ينشأ بين الناس لأسباب مختلفة اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية أو دينية وتختلف هذه النزاعات في أماكنها وأساليبها وأزماتها وفي العادة تخلف الحروب أثارا سلبية على المجتمعات البشرية لما تسببه من أداة لقتل النفس البشرية وتخريب البني الأساسية للمجتمع في جميع النواحي الاجتماعية الاقتصادية والثقافية والنفسية لا تزول أثارها ألا بعد مراحل طويلة من الزمن خاصة بعد ما تعقدت الحياة وتطورت أدوات القتل بأشكالها وأنواعها فأصبحت من القوة والقدرة على إلحاق الضرر بمساحات واسعة من الأرض يمكن أن تكون بحجم مدن عامرة كاملة فالحروب التي سجلها لنا التاريخ القديم يمكن أن نجد فيها نوعا من التكافؤ في العدة والعدد ويمكن للشجاعة والفكر العسكري الجيد أن يلعب دورا بارزا في إحراز النصر لكن اليوم وبعد ظهور الصناعة والتقدم التكنولوجي الكبير سارعت عدد من الشعوب في سباق التسليح ووصل ذروته في القنابل الذرية أو ما يسمى بأسلحة الدمار الشامل وهذا يذكرنا في الحرب العالمية الثانية عندما ألقت الطائرات الأمريكية قنابلها الذرية على مدينتي هيروشيما ونكازاكي اليابانيتين فلم تكن ألا لحظات أحالت فيها المدينتين إلى أطلال مدن كان الإنسان قد أستغرق سنوات في بناءها هكذا يحيل البشر ما قدر الله أن يكون إلى رماد كذلك سجل لنا التاريخ من الشخصيات الدكتاتورية التي امتلكت نزعة الاستحواذ والسيطرة والفكر العسكري البغيض الذي انتهى بأصحابها إلى الهاوية فما من مغيث^(١).

هذه لمحة بسيطة عن الحروب ولننتقل إلى الجانب الآخر وهو الجانب المشرق من الحياة والذي يبعث على الأمل ويستحق الاحترام وهذا ما نجده في مصطلح "حضارة" والتي يمكن أن تعرف بعدة تعاريف لا تختلف جميعها في الجوهر حيث يمكننا أن نعرف الحضارة بأنها "ثمرات جهود الإنسان في بناء المجتمعات البشرية وتشمل هذه جميع النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وما تنضوي تحتها من عناوين أخرى مثل الزراعة، التجارة، الأدب، القانون، العمارة، الفن ... وهكذا والحقيقة أن هذه الإسهامات كانت الأساس في بناء المجتمعات القديمة والحديثة والحضارة لا تتوقف عند تاريخ أو زمن معين فما خلفته لنا الحضارة السومرية هو من إنجازات السومريين وما خلفته لنا الحضارة الأشورية من إنجازات الأشوريين.

وتحظى اليوم الشعوب المتحضرة ذات الإرث الحضاري باحترام الشعوب وتقديرها لما تمتلكه من مقومات النهوض والبناء وهذا ما جعل الكثير من بلدان العالم تهتم بإرثها الحضاري من خلال نشر الوعي الثقافي والتعريف بحضارتها بما في ذلك الاهتمام بالجانب التعليمي والثقافي سواء في الدراسات الأثرية والثقافية أو في إقامة المتاحف المتخصصة وبالنسبة لوادي الرافدين القديمة تمتلك حضارة أصيلة تمتد جذورها إلى عصور قبل التاريخ وحتى العصور التاريخية المتأخرة.

أن ما صنعتته الحضارة من إنجازات خلفتها لنا في بقايا عمارية شاخصة أو أخرى وجدت طريقها إلى المتاحف المتخصصة كثيرا ما كانت تنال نصيبها من الحروب من تدمير أو أعمال نهب وسلب للآثار والممتلكات الثقافية ينشط فيها المختصون من هواة المتاجرة بسرقة الآثار والقطع الفنية التي كثيرا ما تجد طريقها إلى المجموعات الخاصة وهكذا فإن ما تصنعه الحضارة تدمره الحروب^(٢).

٢- قراءة في آثار الحروب القديمة مستوحاة من تاريخ العراق القديم:

استغرقت حياة الإنسان على الأرض مرحلة طويلة من الزمن تضرب جذورها عميقا وتبدأ فيما نسميه بالعصور الحجرية القديمة أو عصور قبل التاريخ فالتسمية الأولى تشير إلى المادة الأساسية التي استخدمها الإنسان في حياته وهي الحجر فصنع منها الآلة وأدواته التي تلائم ظروف معيشته الأولى التي اتخذ فيها من الكهوف والملاجئ الصخرية مأوى يقيه من الظروف البيئية القاسية وأعتد على صيد الحيوان وجمع الفواكه وجذور النباتات فكان بذلك الإنسان جامعا للقوات وقد استطاع أن يدخل التحسينات على أدواته الحجرية بالتشذيب والتهذيب فصنع منها الفؤوس والمقاشط والأزاميل ورؤوس السهام وتسمى هذه المرحلة أيضا بعصور قبل التاريخ وذلك لأن الإنسان لم يهتد فيها إلى الكتابة التي استخدمت لتدوين الأعمال الاقتصادية في المراحل الأولى من ظهورها حيث اكتشفت أولى أشكالها وهي الكتابة الصورية في الطبقة الرابعة من مدينة الوركاء الأثرية والتي تعود إلى عصر جمدة نصر في حدود (٣٥٠٠ - ٣٢٠٠ ق.م) ولذلك اعتبرت الكتابة الحد الفاصل بين عصور قبل التاريخ والعصور التاريخية^(٣).

لقد لعبت ظروف وأحوال البيئة دورا مهما في حياة الإنسان ففي عصر البلايستوسين والذي يعتبر آخر عصر جليدي تحسنت أحوال المناخ فارتفعت درجات الحرارة وخاصة في مناطق من الشرق القديم مثل العراق وسوريا وفلسطين وإيران وتركيا هذه الظروف ساعدت الإنسان في الانتقال إلى مرحلة جديدة من حياته تختلف عن المرحلة السابقة التي كان فيها جامعا للقوت ففي هذه المرحلة أصبح منتجا للقوت حيث أستقر بالقرب من مصادر المياه كالأنهار والينابيع في بيوت شيدت من الحجر أو الطين (الطوف) واختبر مجالات أخرى للمعيشة تمثلت بزراعة محاصيل القمح والشعير الأساسية في غذائه وتعلم تدجين الحيوانات كالأغنام والماعز وكذلك توصل إلى صناعة الفخار التي تعتبر من الصناعات المكتملة للمجتمع الزراعي القديم وعليه استمرت هذه التطورات في موكب الحضارة خلال عدد من الأدوار الحضارية التي أخذت تسمياتها ومميزاتها من الآثار المميزة لها في مناطق انتشارها وحسب التسلسل الزمني لها في العراق القديم^(٤).

يقدر الباحثون المدة التي شغلتها عصور قبل التاريخ من حياة الإنسان ب (٩٩%) وهي نسبة معقولة إذا أخذنا بنظر الاعتبار الزمن لعصور قبل التاريخ فإن أقدم العصور الثانوية للعصر الحجري القديم الأدنى وهو عصر الآلات الحصوية يقدر تاريخه ب (٢ مليون سنة مضت) أما آخر عصور قبل التاريخ هو عصر الوركاء ويقدر تاريخه ب (٣٥٠٠ ق.م) من هنا نستطيع أن نفهم هذه النسبة.

المهم أن هذه النسبة الكبيرة من حياة الإنسان مع افتقارها إلى الأدلة المدونة لم تكن هناك نزاعات أو صراعات في هذه المرحلة الأولى من رحلة الحضارة الطويلة لما تتميز به من حياة بسيطة كانت الصراع الحقيقي للإنسان فيها هو صراعه مع الطبيعة وكيف يسخرها لمنافعه الشخصية^(٥).

ندخل إلى الجانب التاريخي من حياة الإنسان لنعرف متى وأين ظهرت أقدم النزاعات والصراعات في تاريخ العراق القديم. تشير الأدلة التاريخية أن المعاني الحقيقية للحروب والنزاعات قد بدأ في عصر فجر السلالات والذي يؤرخ بحدود (٣٠٠٠ - ٢٤٠٠ ق.م) ومن أهم مميزات هذا العصر أن بلاد وادي الرافدين القديمة كانت مجزأة إلى عدة سلالات وممالك مستقلة ومنفصلة عن بعضها البعض وكانت في الغالب تدخل في نزاع وحروب للاستحواذ على الأراضي الزراعية ومصادر المياه لذلك كانت هذه الأسباب الاقتصادية والسياسية من الأسباب الأولى إلى الصراع بين دويلات المدن السومرية ومن هنا تبدأ قصة الحرب الأولى ولعل أول حرب أشارت إليها المصادر التاريخية هي الحرب بين المدينتين السومريتين أوما ولجش وكيف أن مسيلم ملك كيش قام بدور الوسيط بين الدولتين وحدد الأراضي المتنازع عليها.

ولعل من المصطلحات الخاصة بالحروب والتي جاءت من هذا العصر "قهر" و"فتح" وهذه أشارت إلى أن الحروب امتدت إلى خارج بلاد سومر ومنها تلك التي وردت في عهد أيانا تم التي وصفها بكونها "الجبال الشاهقة" والتي كانت باتجاه بلاد عيلام وأخرى باتجاه الغرب نحو ماري (٦) كذلك نقرأ العبارات الآتية "دحرت المدينة الفلانية ونقلت ملوكيتها إلى المدينة الفلانية".

وقد صورت هذه الحروب في أعمال فنية متنوعة منها مسلات بالنحت البارز أو المدور مثل مسلة النسور وراية أور (ينظر شكل ٢، ١) فهي تنقل صورة أو جانب من المعركة التي دارت رحاها في زمن ومكان معين فهي تعطينا فكرة عن موقع المعركة ونوع الآلة الحربية واللباس الحربي وجانب آخر من المعركة حيث يظهر القتلى أو الأسرى وهكذا هي الصورة الحربية قبيحة بكل أشكالها لكنها مع ذلك هي واقع مؤلم وجدت جذوره في أعمال التاريخ وأن اختلفت الأماكن أو الأسباب أو التواريخ لكن هي حقيقة لصيقة بأعز مخلوق جعله الله (عز وجل) سيد المخلوقات على الأرض بما فضله من قدرة عقلية وحسية وفكرية مع ذلك قدر له أن يوجد بين مكانين الخير من جانب والشر من جانب آخر^(٧).

توسعت الحروب والنزاعات مع تقدم الحياة السياسية المعقدة وبرز طابع الاستحواذ والسيطرة في عهد الإمبراطورية الكبيرة التي ظهرت في تاريخ العراق القديم ولاسيما في عهد الإمبراطورية الأكديّة ومؤسسها سرجون الأكدي في حدود (٢٣٧١ - ٢٢٣٠ ق.م) الذي أستطاع توحيد دويلات المدن السومرية في دولة واحدة عرفت بالدولة الأكديّة نسبة إلى عاصمتها أكد^(٨) ولعل من الأسباب المهمة لهذه الحروب الواسعة هو من أجل المواد الأولية التي كانت تفتقر إليها وادي الرافدين القديمة مثل الأحجار والمعادن والخشب وكذلك السيطرة على طرق التجارة الخارجية وهنا نقرأ في النصوص الملكية التي تشير إلى ذلك مثل الألقاب التي

أطلقها الملوك على أنفسهم مثل "ملك الجهات الأربع" أو "ملك بلاد سومر وأكد" أو "ملك العالم العلوي والسفلي" حيث بدأت صفحة جديدة من السيطرة الخارجية التي امتدت إلى أقطار الشرق الأدنى القديم (ينظر شكل ٣) وقد استمرت هذه النزاعات والصراعات في جميع الأدوار التاريخية التي نقلتها لنا النصوص المدونة وصورتها الأعمال الفنية حتى نهاية العصر البابلي الحديث من تاريخ العراق القديم^(٩).

وما يقال عن الحروب القديمة يصح على حروب الإمبراطورية الآشورية ولاسيما عهد الإمبراطورية الآشورية الحديثة ما يقارب (٩١١ - ٦١٢ ق.م) والتي صورتها لنا الألواح الجدارية في القصور الآشورية (ينظر شكل ٤) فكثيرا ما كان يتبجح الملوك في نصوصهم التاريخية بأعمالهم الحربية وما شهدته على حد قولهم والتي لم تكن تخلو من المبالغة وهو أمر معروف في النصوص القديمة وحتى الحديثة فيما يمكن وصفها بأنها حرب دفاعية قد لا تكون كذلك وما إذا كانت أسبابها مقنعة؟ أو تفاصيلها حقيقة تماما؟ حيث نقرأ في أحد نصوص الملك أسر حدون التي وصفت فتحه لمصر في عهد ملكها تحارقا أو "طهرقا" الحبشي (٦٨٨ - ٦٦٣ ق.م) الذي لم يستطع صد الغزو الآشوري فهرب جنوبي البلاد حيث يذكر النص "من مدينة أشحفري (Ishupri) إلى العاصمة منفس (Menpi) وهي مسافة ١٥ يوما قاتلت قتالا متواصلا جيش "طرقو" ملك مصر والحبشة الملعون من جميع الآلهة لقد أصبته خمس مرات بسهامي محدثا به جراحا لم يشفي منها ثم حاصرت منفس عاصمته وفتحتها في نصف يوم ... وغنمت الملكة وحرمت قصره وولي عهده وأولاده الآخرين وجميع أمواله وخيوله وماشيته وأخذت غنائم كثيرة إلى بلاد آشور وأجلت جميع الأحباش عن أرض مصر وعينت ملوكا على أقاليم مصر وحكاما وموظفين ومراقبين للموانئ ... وفرضت عليهم الجزية السنوية تدفع إلى بصفتي سيدهم".

الحقيقة أن فتح أسر حدون لمصر لم يكن فتحا دائما حيث أن الملك طهرقا عاد من مواقع اختبائه بعد عامين واستعاد العاصمة منفس وشن الحرب على الحاميات الآشورية في الدلتا بعدها توفي أسر حدون وجاء بعهد آشوربانيبال ليعيد فتح مصر ثانية ولذلك فإن قراءة النصوص القديمة تحتاج إلى تمحيص وتدقيق لمضامينها^(١٠).

أذن الحروب والنزاعات كما لاحظنا يمكن أن تكون داخلية وأخرى خارجية ولعل من الصور المأساوية للحرب الداخلية والنزاع على السلطة هي التي جرت بين الأخوين آشوربانيبال وشمش شوم أوكين فبعد وفاة أسرحدون أصبح آشوربانيبال حاكما لبلاد آشور وشمش شوم أوكين حاكما لبلاد بابل ولكن سرعان ما دب الصراع بين الاثنين فاستأثر آشوربانيبال بالسيطرة على البلاد فشن حربا على أخيه انتهت بمصرع الأخير في النيران التي ألتهمت قصره^(١١).

ومن الآثار التي تتركها الحروب والنزاعات هو التدمير للمدن العامرة والقتل للنفس البشرية وأعمال النهب والسلب والانتهاك للحرمت نذكر بهذا الخصوص ما أصاب مدينة أور عاصمة سلالة أور الثالثة التي

أسسها الملك أورغو في حدود (٢١١٢ - ٢٠٠٤ ق.م) فبعد الاضطرابات السياسية والاقتصادية التي عصفت بأخر حكامها أبي سين سقطت أور علي يد العيلاميين وعم فيها الدمار فخربت المدينة وقتل جنودها والكثير من أبنائها لقد صورت هذه الفاجعة في نصوص أدبية جاءت من العصر البابلي القديم من حكم سمسو أيلونا سابع حاكم لسلالة بابل الأولى (١٧٤٩ - ١٧١٢ ق.م) وتعد من أروع النصوص الأدبية التي جاءت في رثاء المدن حيث جاء في وصف المدينة "أن الأعداء أطبقوا على المدينة كالأعاصير العاتية وامتألت الطرقات والأبواب بجثث الموتى وتكدست بها مواضع الأعياد وتعالى أنين الجرحى وصراخهم ولا من يعينهم ويسعفهم لقد هلك الأقوياء والضعفاء جوعا ومات كثير من الناس في حرائق بيوتهم وجرفت المياه الأطفال والرضع أنكرت الأم طفلها وتخلت عنه هجرت الزوجة ونبتذ الطفل والتهمت النيران المخازن والأهراء وعملت الفوؤس الضخمة في معبد (أي كشركال) ذلك الطود الشامخ المنيع لقد أمتنه ودنس العيلاميون والسوباريون الذين أحلوا الدمار والخراب في المدينة" (١٢) ونقرأ أيضا في رثاء أور:

"أور في داخلها موت وفي خارجها موت

في داخلها نموت من الجوع ومن خارجها نقتل بأسلحة العيلاميين

لقد فكوا مزاليج بواباتها وما هي لازالت مشرعة اليوم

واكتسحوها وكأنهم أمواج متدفقة عاتية

فتحطمت أور بفعل السلاح مثلما يتحطم أناء من الفخار" (١٣).

جانب آخر من أثار الحروب والنزاعات هو حالة الاضطراب السياسي والاقتصادي الذي يمكن أن يعصف بالبلاد وهذا يذكرنا بعهود الاحتلال عندما تكون البلاد أسيرة الاحتلال الأجنبي ولاسيما ما جرى بعد الاحتلال الكويتي لأكد حيث أسقط الكويتيون الإمبراطورية الأكديّة ودخلت حالة من الفوضى السياسية عبر عنها بالعبارة الآتية "من كان الملك ومن كان غير الملك" حتى برز الحاكم أوتوحيكال حاكم الوركاء الذي أستطاع أن يوحد المدن السومرية ويهزم آخر حاكم كويتي المعروف "تريقان" (١٤).

ومن الأمثلة على حالات الاضطراب السياسي والاقتصادي التي تخلفها الحروب نجدها في نهاية

سلالة أور الثالثة في عهد آخر حكامها أبي سين وما حصل من تدهور سياسي بين أبي سين وواحد أمرائه على

أيسن وهو أشبي أيرا الذي لعب دورا كبيرا في انهيار الوضع الاقتصادي لسلالة أور الثالثة حيث أحتفظ بالمؤونة

اللازمة من حبوب القمح التي كان من المفروض إرسالها إلى العاصمة أور وهكذا اجتمعت الأسباب الداخلية

والخارجية للقضاء على هذه السلالة (١٥).

جانب سلبي آخر للحروب والنزاعات هو ما يصاحبها من أعمال النهب والسلب والاعتصاب ومن الأمثلة على سرقة النصب الأثرية المهمة هو سرقة الملك العيلامي شتروك ناخونتي لمسلة حمورابي من مدينة سبار^(١٦) حيث نقلها بعد غزو مدينة بابل ما يقارب ١١٧١ ق. م وهذه المسلة تمثل قانون حمورابي صنعت من حجر البازلت الأسود يبلغ طولها ٢,٢م وقطرها ٦٠سم أسطوانية الشكل ومحفوظة الآن في متحف اللوفر في باريس وتضم في أعلاها نقش بالنحت البارز يمثل الملك حمورابي ويده الحلقة والصولجان ويقف أمام الآلة شمس الذي يظهر جالسا على العرش وتخرج من كتفيه أشعة الشمس وهو يمثل اله العدل عند البابليين وتضم المسلة في الأسفل ما يقارب ٢٨٢ مادة قانونية لتنظيم الحياة في جميع النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للبلاد وقد أراد الملك شتروك ناخونتي أن يضع على المسلة نقشا باسمه حيث محا جزءا منها ويبدو أن اللعنات التي ضمتها المسلة في نهايتها قد منعت من ذلك وكما يقال "رب ضارة نافعة" كان من فائدة هذه السرقة هو العثور عليها من قبل البعثة الفرنسية في سوسة التي أظهرت للعالم جانب مهم من أسس الحضارة البابلية القديمة التي لا تزال جوانب وتفاصيل مهمة تقع تحت الطبقات السفلي لمدينة بابل والتي لا تستطيع بعثات التنقيب الوصول إليها بفعل المياه الجوفية التي تغطيها^(١٧).

الآن بعد أن عرفنا تاريخ الحروب والنزاعات وأسبابها وظروفها تبقى الحرب بمعناها الحقيقي أداة للقتل والدمار والتخريب في الصفة الغالبة وما تتركه من آثار جانبية يمكن أن تلحق الضرر بالمؤسسات الثقافية والمواقع الأثرية أو النصب التاريخية. من هنا جاءت عدد من المؤسسات التي عنت بالعلوم والثقافة لمختلف الشعوب ولاسيما منظمة (اليونسكو) حيث جاء ضمن مقررات مؤتمر البندقية الذي عقد في عام ١٩٦٤ في فينيسيا عدد من المواد التي تنصب في أهمية المواقع الأثرية والنصب التاريخية مع اختلاف الحضارات التي تنتمي إليها وأماكن تواجدها حيث نقرأ في المادة (٧) "أن أي نصب تاريخ معين غير قابل للانفصال عن التاريخ الذي يقف شاهدا له وعن المكان الذي يوجد به" ونقرأ في المادة (١٤) "أن مواقع النصب الأثرية يجب أن

تحتل برعاية خاصة لحماية سلامتها وتأمين ثقافتها وعرضها بطريقة لائقة" (١٨). لذلك فإن سلامة وأمن المؤسسات الثقافية ومنها المتاحف أثناء الحروب والصراع المسلح هو واجب وطني يقع على عاتق الحكومات بما تهيئه من عناصر الحماية اللازمة ذات القدرة والكفاءة لهذه الأماكن الثقافية باعتبارها ثروة وطنية ووجه براق ننهل منه العلم والمعرفة ويذكر الكتاب الروماني شيشرون "يقي جاها لا إلى الأبد من لا يعرف تاريخ أمتة" (١٩).

٣- شواهد صورية لأثار الحرب الأمريكية في تدمير وسرقة المعالم الأثرية في قطرنا العزيز:

بلا شك أن الحروب والنزاعات كما لاحظنا في استقراء التاريخ القديم لوادي الرافدين لا تختلف عن مثيلاتها في البلدان الأخرى ولكن العراق القديم بتاريخه العميق سجل لنا السبق الأول في هذه الصورة المؤلمة التي أثبتت الحياة أن تستقيم بدونها هكذا قدر الله (عز وجل) للإنسان أن يختار بين جانب الخير الذي يعمر ويبنى الحياة وجانب الشر الذي يدمر كل ما هو جميل تدفعه في ذلك النزعة الشريرة والتي تدخل في مكنوناتها التسلط والاستحواذ والحقد والمفاهيم الفكرية الغربية التي تتخذ طابع السياسة تارة والدين تارة أخرى.

واليوم يشهد قطرنا العزيز بعد ست سنوات خلت لحرب أتت في جوانب منها على تدمير وسرقة عدد من المعالم الأثرية التي تمثل صورة ناصعة لحضارة ضربت جذورها في الأرض وتركت أثارها شواهد أعطت للعالم أجمع دروسا في العلم والأدب والفن والعمارة. وهنا أود أن أقدم صور واقعية توضح أثار التدمير التي تعرض لها المتحف العراقي الذي تأسس عام ١٩٢٣م في المبني القديم في القشلة حتى أنتقل في الستينات من القرن المنصرم إلى المبني الحالي في منطقة العلاوي حيث نلاحظ في الصور أثار مدمرة وأخرى تمثل خزانات خاوية نخب وسرقت وصور توضح عدد من موظفي المتحف وهم ينظرون بتعجب لما حل بآثارهم وأخرى جلست تندب الأطلال! (ينظر صورة ١-٦) (٢٠).

وهنا يأتي السؤال المهم من سرق الآثار؟ بلا شك أن الاحتلال كان له الأثر الكبير في تدمير وسرقة العديد من المعالم الأثرية فهو الذي أطاح بالبلد وأباح للناس عمليات السرقة فالكثير منا قد رأى بأمر عينه كيف أن الجنود الأمريكيون قد كسروا بوابات المخازن العامة والدوائر والمؤسسات الحكومية لتنهب وتسرق وكيف لا فهو المدمر القديم - الحديث. المهم إذا علمنا بأن موقع المتحف لا يبعد عن القصر الجمهوري مسافة كيلو متر واحد وقد اتخذوه مقرا لهم بعد دخولهم بغداد ألم يكن بقدرتهم حماية المتحف؟! نعود إلى السؤال الأول عندما أباح الاحتلال سرقة الممتلكات الوطنية كان المتحف من الأماكن الثقافية التي تعرضت

للسرقة وقد أخبرني أستاذي الدكتور جابر خليل إبراهيم الذي كان مديراً عاماً لهيئة الآثار والتراث أنه طلب من الضابط الأمريكي الذي أتخذ من المتحف مقراً له حماية المتحف من أعمال السرقة والنهب التي استمرت من قبل العصابات وتجار بيع القطع الأثرية ولكن هذا حصل بعد أن نهب قسم كبير من القطع الأثرية المحفوظة في الخزانات العلوية في الأيام الأولى من الاحتلال أي بعد الأيام التي تلت ١٠ نيسان عام ٢٠٠٣ م (٢١).

بالطبع هناك الكثير من القطع الأثرية التي نُهبت وجدت طريقها إلى تجار ومهربي الآثار في الأقطار المجاورة مثل الأردن ولبنان وإيران وسوريا والتي استطاعت دائرة الآثار العراقية أن تستعيد قسماً منها وقسماً آخر أعاده بعض المواطنون إلى دائرة الآثار المهم هنا ليس من العيب أن نذكر من سرق من المواطنين العراقيين القطع الأثرية ضمن حالة الفوضى وأعمال النهب التي شهدتها البلاد حيث تسارعت النفوس الضعيفة بدافع الفقر أو السرقة أو الرغبة وخاصة من التي كانت تسكن المناطق القريبة من المتحف بسرقة الآثار والحقيقة أن جميع هذه الدوافع لا تبرر هذه السرقة وهنا يطرح سؤال كم كان عدد هؤلاء السراق؟ وكم يمثلون من المجتمع العراقي؟ بلا شك هي نسبة ضئيلة من الناس الذين يفتقرون إلى الثقافة والمعرفة والتربية الجيدة.

ومثال على ذلك وللصدفة دورها وأنا أكتب بحثي هذا جاءني شخص وهو يحمل صوراً لقطع أثرية فهو يعلم بأني أستاذ في الآثار القديمة وأراد مني معرفة هل هذه الصور للقطع التي بحوزة شخص ما تمثل آثار حقيقية أم مزيفة فعندما نظرت للصور أدركت أنها قطع مزورة ولكني أخبرته بأني سأؤكد من حقيقتها وإذا كانت أصلية إن يساهم في أعادتها إلى دائرة التراث لتكون ضمن إطارها الصحيح وهو المتحف فهي ملك

لجميع وهذا مثال بسيط على القطع الأثرية التي تعرضت للسرقة فوقعت في أيدي أناس لا يفقهوا معناها وينظرون إلى القيمة المادية التي يمكن أن يجنيها منها فقط (ينظر صورة ٧-٩) (٢٢).

هناك العديد من الآثار النفسية التي سرقت من المتحف العراقي خلال المدة من ٨- ١٢ نيسان عام ٢٠٠٣م وقد تنوعت هذه الآثار من تماثيل وألواح مسمارية وأختام أسطوانية وحلي وفلائد لا تقدر بثمن والحقيقة أن البعض من هذه القطع الأثرية قد وجد طريقة إلى تجار الآثار إلى درجة أن آخر ما يمكننا أن نتصوره هو وصول قطع أثرية إلى دولة (بيرو) حيث أخذت دائرة الآثار والتراث علي عاتقها إرجاع هذه القطع إلى وطننا العزيز وقد أعيدت فعلا عدد من القطع الأثرية المسروقة بالتعاون مع عدد من المنظمات الثقافية الدولية ولاسيما منظمة اليونسكو وكان من بين الأشياء البسيطة هو إصدار تقويم لعام ٢٠٠٨م نشرت فيه عدد من القطع الأثرية المسروقة من أجل التوعية الحضارية والدفع باتجاه الحفاظ على الموروث الحضاري والتراثي للبلد وكذلك شمل التقويم نتاجات فنية جميلة لإبداعات الفن العراقي المعاصر سرقت من (مركز الفنون) سابقا (ينظر صورة ١٠ - ٢١) وعليه هي خطوة جيدة تحتاج إلى تنظيم أكبر (٢٣).

التوصيات

أود في نهاية هذا البحث أن أثبت عدد من النقاط الأساسية والتي يمكن أن تسهم في الحفاظ على الموروث الحضاري والثقافي لقطرنا العزيز وذلك من خلال عدد من السبلات التي خلقتها الحرب.

- ١- الاهتمام بالجانب التعليمي والتثقيفي من أجل أعداد أجيال واعية تمتلك القدرة على النهوض بالمجتمع وذلك من خلال غرس المعرفة الحضارية الصحيحة القائمة على روح التعاون والاستفادة من تاريخ وادي الرافدين القديمة وما قدمته في مختلف المجالات سواء الفن أو الأدب أو العمارة التي تركت أصولها للأجيال اللاحقة فمن السهولة أن يستطيع الإنسان إعادة مبنى دمره الاحتلال أو الغزو الأجنبي في وقت وتاريخ معين لكن ليس من السهولة أعداد جيل مثقف بمعنى الكلمة لنحظى ب "المدينة الفاضلة"!

والحقيقة هذه مسؤولية الجميع ابتداء من العائلة وهي الرحم الأول ثم المدرسة والجامعة

- ٢- لا بد أن تلعب المؤسسات الثقافية والحضارية وبشكل خاص منها (المتاحف، الفضائيات، وزارة السياحة، التلفزيون، المسرح) دوراً في نشر الثقافة والمعرفة الحضارية فيما تقدمه من عروض أو برامج أو أعمال فنية جميلة تقام في الأماكن العامة مستوحاة من ارثنا الحضاري القديم والإسلامي.

- ٣- حماية المواقع الأثرية من التجاوزات التي تتعرض لها وهذا يقع على عاتق دائرة الآثار والتراث بتوفير الحماية اللازمة وذات القدرة والكفاءة المطلوبة وإيجاد آلية تشجع الأشخاص الذين تقع في مزارعهم أو أراضيهم مواقع أثرية تدرج ضمن مسؤولية الدائرة وبطريقة معلنة وكذلك الحال بالنسبة للقطع الأثرية المسروقة.

٤- أقامه ورش أعمال صيفية بالتنسيق بين دائرة الآثار والتراث وأقسام الآثار في جامعات بغداد،

الموصل، القادسية، بابل، تتضمن حلقات دراسية حول الدراسات الأثرية وأعمال الصيانة

والترميم وحتى بالإمكان اختيار أحد المواقع الأثرية القريبة ضمن نطاق الجامعات للقيام بأعمال

التنقيب بشكل عملي يتفاعل معه طلاب المراحل المنتهية الأمر يساعدهم في اكتساب الخبرات

الضرورية ضمن المجال الأثري وهي خطوات أساسية تقوم بها العديد من أقسام الآثار في

الجامعات العربية والأجنبية.

الهوامش

١- الرازي محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، الكويت، ١٩٨٣. هناك العديد من الكلمات التي تدخل

في باب الحروب والمعارك ولا تختلف كثيرا في معناها منها الأفعال الثلاثية: حرب ص ١٢٨، قتل

ص ٥٢١، عرك ص ٤٢٨، نزع ص ٦٥٤، صرع ص ٣٦١.

٢- لويد. سيتن، فن الشرق الأدنى القديم، ترجمة محمد درويش، بغداد ١٩٨٨، ص ٩ - ١٠.

الجميلي، قصي صبحي، عصر نينوي الطبقة الخامسة دراسة أثرية، أطروحة دكتوراه أجازت من

قسم الآثار/ كلية الآداب/ جامعة بغداد، ٢٠٠٦، ص ١.

٣- الدباغ. تقي، الجادر. وليد، عصور قبل التاريخ، بغداد، ١٩٨٣، ص ٦١ - ٦٢.

باقر. طه، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، الجزء الأول، بغداد، ١٩٨٦، ص ١٦٦ -

١٦٨.

ديفيد، أوتيس. جوان، نشؤ الحضارة، ترجمة لطفي الخوري، بغداد، ١٩٨٨، ص ٦١ - ٦٢.

لقد تعارف الباحثون على تقسيم العصور الحجرية القديمة إلى عدة عصور رئيسة وأخرى ثانوية

بالاعتماد على طرق صناعة الآلة وأحوال المعيشة التي كانت سائدة في هذه العصور ينظر لمزيد

من المعلومات: باقر. طه، المصدر السابق، ص ٦٣ - ١٦١.

٤- ديفيد، أوتيس، جوان، المصدر السابق، ص ٩ - ١٤.

الدباغ. تقي، الجادر وليد، المصدر السابق، ص ١٧-٢٧. كذلك ينظر:

5- Gates, C, Ancient Cities The Archaeogy Of Urban Life In The Ancient Near East And Egypt, Creece, And New york, 2003, pp 13 - 28.

6- Crawford. H, Sumer And Smerians, Cambridge, 1991, pp 1- 12.

- 7- Wolly. L, Mesopotamia And The Middle East, London, 1961, pp 15 – 36.

ينظر حول التسلسل الزمني للأدوار الحضارية في العراق القديم:

صالح. قحطان رشيد، الكشف الأثري في العراق، بغداد، ١٩٨٧، ص ١٩ – ٢٠.

٥- الدباغ. تقي، الجادر. وليد، المصدر السابق، ص ٣.

باقر. طه، المصدر السابق، ١٦٥ – ١٦٦.

٦- علي. فاضل عبد الواحد، "المنجزات السياسية والعسكرية في عصر فجر السلالات السومرية"، مجلة

المورد، المجلد السادس عشر، العدد الثالث، بغداد، ١٩٨٧، ص ٢٠ – ٢٢.

٧- باقر. طه، المصدر السابق، ص ٣٤٢ – ٣٤٣.

علي. فاضل عبد الواحد، المصدر السابق، ص ٢٢ – ٢٣.

٨- علي. فاضل عبد الواحد، المصدر السابق، ص ٢٠.

٩- باقر. طه، المصدر السابق، ص ٣٥٩.

١٠- المصدر نفسه، ص ٥٢٣ – ٥٢٤.

١١- ساكز. هاري، عظمة بابل، ترجمة الدكتور عامر سليمان، الموصل، ١٩٧٩، ص ١٦١ – ١٦٣.

١٢- باقر. طه، مقدمة في أدب العراق القديم، بغداد، ١٩٧٦، ص ٢١٣ – ٢١٨.

١٣- المتولي. نواله أحمد، مدخل في دراسة الحياة الاقتصادية لدولة أور الثالثة في ضوء الوثائق المسمارية

(المنشورة وغير المنشورة)، بغداد ٢٠٠٧، ص ٣١٨ – ٣١٩.

١٤- باقر. طه، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، المصدر السابق، ص ٣٧٥ – ٣٧٦، ص ٣٨٠ –

٣٨١.

١٥- بوترو. جين وآخرون،، الشرق الأدنى الحضارات المبكرة، ترجمة الدكتور عامر سليمان، الموصل، ١٩٨٦، ص ١٥٦ - ١٥٩.

باقر. طه، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، المصدر السابق، ص ٣٩٣ - ٣٩٦.

١٦- بوترو، جين وآخرون، المصدر السابق، ص ٢٠٧.

١٧- رشيد. فوزي، الملك حمورابي مجدد وحدة البلاد، الموسوعة الذهبية، العدد ٥، بغداد، ١٩٩١، ص ٣٩ - ٤٢.

١٨- مظلوم. طارق عبد الوهاب، مجلة التراث والحضارة، العدد ٤، بغداد، ١٩٨٥، ص ٩ - ١٢.

اليونسكو من المنظمات الدولية التابعة للأمم المتحدة والتي أخذت على عاتقها الاهتمام بالعلوم والثقافة حيث عقد مؤتمرها التأسيسي عام ١٩٤٥ في لندن والذي جاء تحت عنوان "الحروب تولد في نفوس الناس فوسائل الدفاع عن السلام يجب أن تقوم في نفوس الناس كذلك" ينظر صعب حسن، الأونسكو منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة، بيروت، ١٩٤٨، ص ١٠.

١٩- الدباغ. تقي، رشيد، فوزي، علم المتاحف، بغداد، ١٩٧٩، ص ٩، ص ١٠٢.

٢٠- المصدر نفسه، ص ٢٩ - ٣٠.

٢١- معلومة أفادني بها الدكتور جابر خليل إبراهيم مدير السابق لهيئة الآثار والتراث.

٢٢- في حديث عرضي لي مع أحد مروجي القطع الأثرية المسروقة.

٢٣- تقويم لعام ٢٠٠٨م بعنوان (الإرث الحضاري المسروق من العراق) نشرته منظمة اليونسكو.

الأشكال

١- مسلة النصور: مسلة مصنوعة من الحجر الرملي يبلغ ارتفاعها ٨٨,١م وعرضها ٣,١م وهي مدورة من الأعلى المسلة منحوتة النحت البارز وهي تمثل تخليد لانتصار الملك أيانا تم ملك لكش على مدينة أو ما المجاورة والمسلة ليست كاملة وتغطي أجزاء منها كتابة ويظهر في جزءاً من المسلة الألة نكرسو الألة الرئيس لمدينة لجش وهو بحجم كبير وقد مسك الأعداء في شبكة كالسمك ويظهر فوق الشبكة أم دوكد وهو حيوان خرافي نسر برأس أسد وهو يعتلي أسدين وهو رمز الموت وباليد اليمنى يمسك الألة نكرسو الصولجان وفي هذا الجزء تظهر عربة يجرها حيوان خرافي (أسد مجنح) ويقف أمامه اله وهو بخوذته المقرنة ربما تشير إلى نزول نكرسو من عربته. وفي جانب آخر من المسلة يظهر الملك أيانا تم وهو يتقدم مجموعة من جنوده وهم في صف من حملة الرماح المدرعين يظهرون وهم يسيرون فوق جثث الأعداء وفي جزء آخر تظهر النصور وهي تنهش الجثث وفي صورة أخرى من المسلة يظهر أيانا تم وهو في عربته عائدا منتصرا من المعركة يقدم جنوده وأخيرا يتوج النصر في حفل لسكب الماء المقدس وتقديم القرابين على قبر جماعي للأبطال الصرعي.

ينظر: مورتكات. أنطوان، الفن في العراق القديم، ترجمة وتعليق الدكتور عيسى سليمان وسليم طه التكريتي، بغداد، ١٩٧٥، ص ١٤٧.

٢- راية أور: من الآثار المهمة التي عثر عليها في المقبرة الملكية في أور وتسمى راية أور وهو صندوق ذو أربعة أوجه كل جانب فيه ثلاثة حقول زخرفية تمثل مشاهد حرب وانتصار عملت هذه المشاهد من قطع صغيرة من الصدف واللازورد وقد ثبتت بواسطة القار حيث نشاهد في ثلاثة حقول

مشاهد حربية يظهر فيها الجنود والعربات الحربية والقتلى وتمثل الثلاث الأخرى مشاهد انتصار وشراب وتقديم القرابين ويمكن تمييز الشخصية الرئيسة الممثلة بالملك من خلال حجمه الكبير.

ينظر: لوريد. ستين، فن الشرق الأدنى القديم، ترجمة محمد درويش، بغداد، ١٩٨٨، ص ٩٤ -

٩٥.

٣- مسلة نرام سين الأكدي: من المسلات التي تعود إلى العصر الأكدي وهي مصنوعة من حجر رملي وردي اللون طولها يقارب ٢م وهي منحوتة من جانب واحد بالنحت البارز وهي تمثل انتصار المالك نرام سين على الأقوام اللولبيين للذين كانوا يتخذون من المناطق الجبلية الشمالية الشرقية لو أدى الرافدين القديمة مقرا لهم كما تشير الكتابات التي تضمنها المسلة وتظهر رموز الهة وقد صور نرام يسن بحجم كبير وهو يرتدي الخوذة المقرنة ويحمل بيد رمح وبالأخرى القوس ويظهر أمامه شخص قد أصيب برمح والآخر يظهر يتوسل إليه وفي الأسفل يظهر الجنود الأكديين برماحهم الطويلة ويظهر الأعداء وهم يتساقطون حيث مثلت الأشجار في بيئة جبلية.

ينظر:

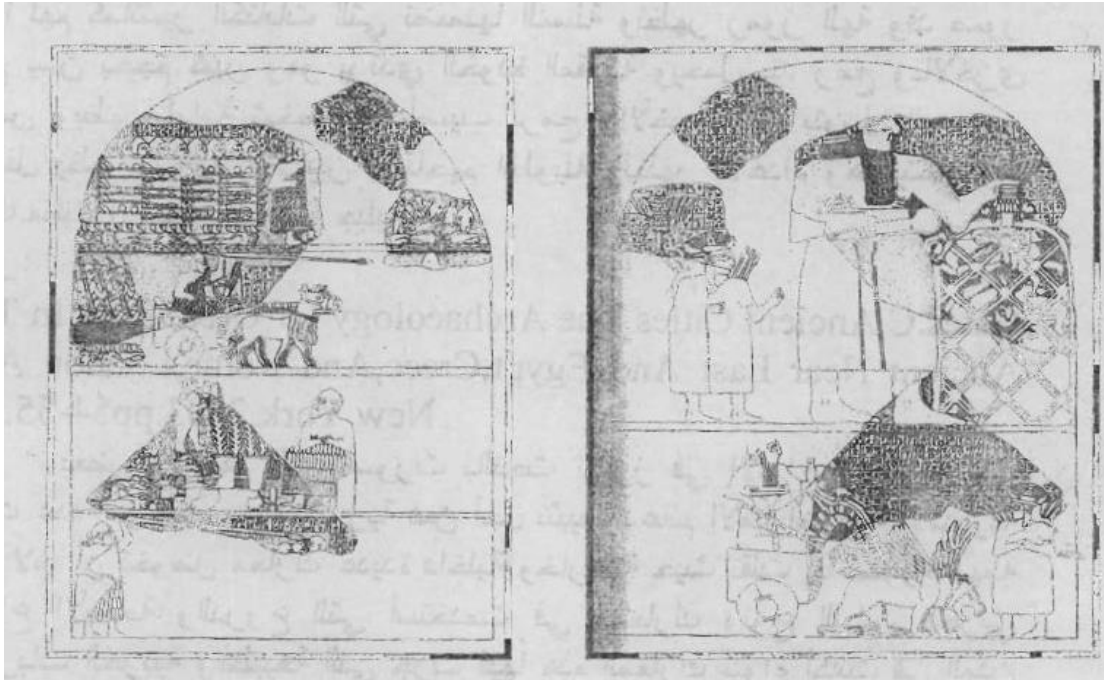
Gates, C, Ancient Cities The Archaeology Of Urban Life In The Ancient Near East And Egypt, Creec, And Rome, London And New York, 2003, pp 54 – 55.

٤- بعض المشاهد التي صورت بالنحت البارز في الألواح الجدارية التي زينت عددا من القصور الآشورية فمن أجل تثبيت دعائم الإمبراطورية الآشورية كان لا بد أن تخوض معارك عديدة داخلية وخارجية حيث نقلت لنا صورة مهمة لأنواع الأسلحة والدروع التي استخدمت في المعارك ونوع اللباس الحربي والعربات الحربية والطبيعة التي جرت فيها هذه المعارك سواء أكانت في المدن أو الجبال أم السهول والأهوار ونقلت لنا كذلك الأساليب التي أتبع في هذه والتي لا تكاد تخلو منها حتى

المعارك في العصر الحديث كالتعذيب بربط الأيدي والأرجل أو إعدام الجنود بتصليلهم على
أعمدة أو ذبحهم بالسيوف أو الخناجر.

ينظر لمزيد من المعلومات:

Frankfort. H, The Art And Architecture Of Ancient Orient London,
1954, pp 174 – 185.



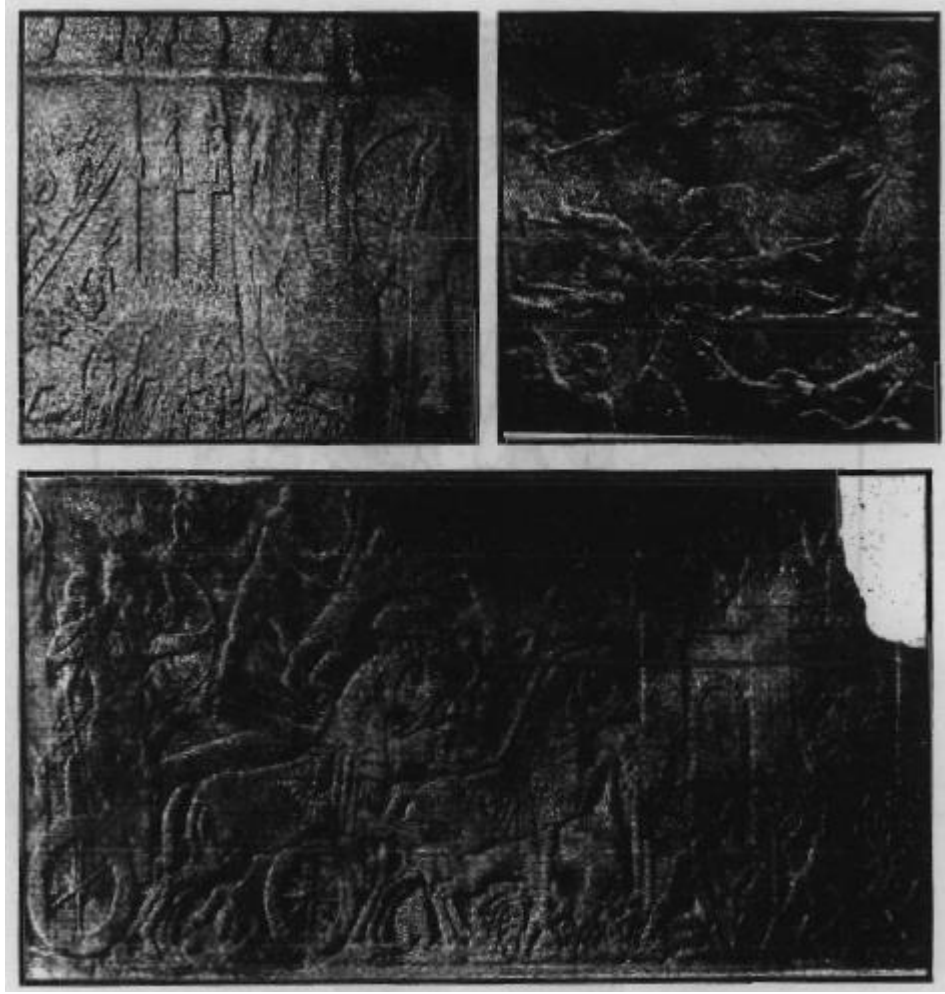
شكل ١ - ١ - مسلة النسر / عن: Gates. C, Op. Cit, pp 42 - 43



شكل ٢ - ٢ - راية أور / عن: مورتكات. أنطوان، المصدر السابق، ص ٣٨١. كذلك: Gales. C, Op, Cit, p 48.

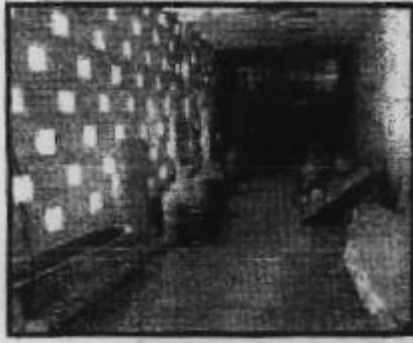


شكل - ٣ - مسلة نرام سين/ عن: Gates. C, Cit, p 54.



شكل - ٤ - مشاهد من الألواح الجدارية الأشورية المنقوشة بالنحت البارز وتمثل مشاهد حربية/ عن: ساكر. هاري، المصدر السابق، ص ٣٨٥. كذلك: مورتكات. أنطوان، المصدر السابق، ص ٣٨٦.

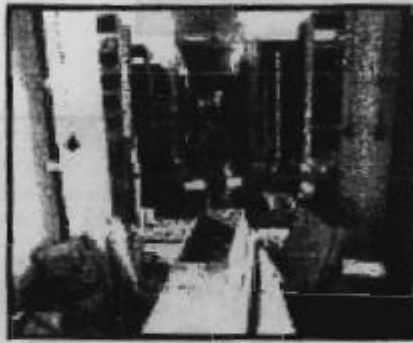
الصور



-٢-



-١-



-٤-



-٣-



-٦-



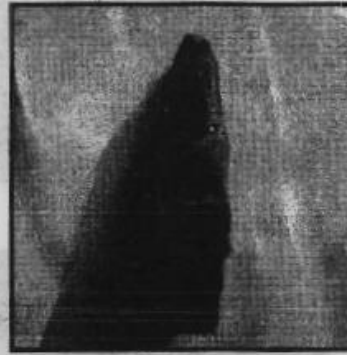
-٥-



-٧-



-٩-



-٨-



-١١-



-١٠-



-١٣-



-١٢-

